الله الخالق والآلهة المُختلقة

في خلوة فكرية مع المرحوم ياسر عرفات (أبو عمار)، وكان الليل في آخره، حدثني عن حكاية غريبة وقعت له أثناء زيارة قام بها للهند حين كانت السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء. قال أبو عمار أنه بعد أن انتهت المحادثات الرسمية بين الوفدين الفلسطيني والهندي، قالت السيدة غاندي للرئيس عرفات على انفراد أنها بحاجة لمساعدته لكبح جماح شاب فلسطيني يخلق لها المتاعب. وحين نظر أبو عمار إلى صديقته نظرة استغراب، سارعت إلى القول أن الشاب المعني له أتباع كثيرون، الأمر الذي يمكنه في تنظيم مظاهرات وإثارة القلاقل في مدن الهند الرئيسية. ومع انه كان من الصعب على أبو عمار أن يتصور إمكانية قيام شاب أجنبي بخلق مشاكل لرئيسة دولة تملك صلاحيات كافية لوضع حد لمثل تلك الأمور، إلا أنه وعد السيدة غاندي بتسوية الأمر قبل رحيله.

حين سأل أبو عمار سفير فلسطين في الهند عن الشاب الفلسطيني المعني، وأظن أن اسمه غسان، سمع جوابا أثار استغرابه وفضوله؛ قال السفير بأن غسان هو أحد الآلهة المعروفين في الهند، وأنه يقوم بتنظيم مظاهرات صاخبة دفاعا عن حقوق الضعفاء والفقراء والمحرومين. أمر أبو عمار سفيره بأن يدعو غسان لزيارة السفارة للتعرف عليه والتفاهم معه. رحب غسان بفرصة اللقاء مع الزعيم الفلسطيني، لكنه اشترط أن يستقبله أبو عمار كما يجب: خروج أبو عمار مع كادر السفارة الفلسطينية والوقوف أمام السفارة حال اشعارهم بقرب وصول غسان والوفد المرافق له، وتقديم التحية له بالانحناء أمامه، وطأطأت رؤوسهم حال وصوله. لم يكن أمام أبو عمار خيار سوى قبول الشرط القاسي هذا، وقد زاد فضوله فضولا.

وصل غسان ومن حوله نحو 200 شاب يسيرون ويقفزون كأنهم يرقصون رقصة غجرية؛ وبعد انتهاء مراسم الاستقبال، مسك أبو عمار غسان من يده وقاده إلى داخل السفارة، فيما بقي رجال غسان في خارج السفارة يحرسونها حتى يعود إلههم إليهم. جلس أبو عمار مع غسان على انفراد في غرفة خاصة، وخاطبه مباشرة قائلا: "إيه اللي انت بتعمله يا غسان في الهند؛ إيه حكايتك؟" قال عسان: لقد وصلت الهند قبل نحو سبع سنوات للدراسة، وبسبب الحاجة لإعالة نفسي، كان علي ان أجد وظيفة تدر بعض الدخل؛ ولقد كان حظي عظيما حين وجدت وظيفة للعمل ضمن الحاشية المقربة من أحد آلهة الطوائف في الهند؛ إذ كان يستشيرني في كافة الأمور المتعلقة بالإسلام والمسلمين وقضية الشعب الفلسطيني.

أحب الإله الهندي غسان وقربه إليه وائتمنه على اسراره وأمواله. وحين وصل الإله هذا إلى حافة الموت، أوصى بأن يرثه غسان، ويقوم بدوره كإله لأتباعه. وحال تسلم غسان المنصب الجديد، ترك الدراسة وقام بتعيين ابن عمه نبيا كي يساعده على إدارة الاموال التي كان من الصعب حصرها. قال أبو عمار لغسان بعد سماع حكايته من أولها لآخرها، أريدك أن تعود معي إلى الوطن، فلسطين بحاجة لكل أبنائها. رد غسان قائلا: كم عدد الشعب الفلسطيني أخي أبو عمار؟ نحو 6 ملايين، أجابه أبو عمار. وماذا سأفعل لو عدت معك؟ ستكون أحد المرافقين لي، أو سفيرا لنا في دولة آسيوية تختارها بنفسك. سكت غسان قليلا ثم قال: الشعب الفلسطيني 6 ملايين، وأتباعي من الهنود يتجاوز عددهم

12 مليون نسمة، أي ضعف الشعب الفلسطيني، والآن تريدني أن أترك عشيرتي هذه التي تعبدني كي أعمل مرافقا لك، ومن سيتكفل بالفقراء والضعفاء من بعدي، ومن سيدافع عن حقوقهم؟ سكت أبو عمار طويلا ثم قال: أنت حر يا غسان، ومن واجبك أن تدافع عن حقوق المظلومين والفقراء، وأنا أقدر موقفك هذا، ولكن أوصيك خيرا بالسيدة أنديرا غاندي، أرجو أن تتجنب ازعاجها واحراجها، فهي صديقة وفية للشعب الفلسطيني، وأكبر الداعمين لحقوقنا على الساحة الدولية.

وما أن خرج غسان من الغرفة حتى قال أبو عمار يُكلّم نفسه: ولم لا، "كل فلسطيني عامل حاله إله"؛ فغدت كلمات ابو عمار هذه مثلاً. نعم، غسان إنسان عادي أصبح إلها لأكثر من 12 مليون إنسان بقرار من رجل مثله اختاره من بين ملايين البشر وقام بتتويجه إليها لغيره من الناس. ومع أن الله هو الخالق الوحيد الذي خلق جميع البشر وكل ما في الكون من كواكب وحيوانات ونباتات وأشياء أخرى، وأنه ليس هناك خالق غيره، إلا أن هناك الكثير من الآلهة الذين يقوم البشر عن جهل أو عمد باختلاقهم وتقديسهم سعيا لمصلحة أو بسبب حاجة نفسية. لذلك حين نتكلم في هذه الورقة عن الآلهة، فإننا لا نتكلم عن الله الخالق، وإنما عن آلهة الأرض الذين يختلقهم البشر، وعن الرجال الذين يتكلمون باسم الله الخالق، ويمنحون أنفسهم موقعا متميزا بين أتباعهم من خلال الادعاء بأنهم يعرفون أسرار الكون وما بعد الحياة؛ الأمر الذي يمكنهم من مصادرة مكانة الله في الأرض، ويمنحهم الفرصة لتحريف أقوال الله وكتبه أحياناً؛ وما أكثر هؤلاء في بلاد المسلمين.

نشرت الكاتبة البريطانية كارين ارمسترونج عام 1993 كتابا بعنوان (A History of God)، أي تاريخ لالله، وليس تاريخ الله. ومما جاء في ذلك الكتاب قول ارمسترونج أن الله لم يخلقنا نحن البشر، وإنما نحن الذين خلقنا الله. وقد فُسِّر القول هذا على أن ارمسترونج لا تعترف بوجود الله، ولكن حاجة البشر لإله جعلتهم يقومون بخلقة. من ناحية ثانية، إن عدم تسمية الكتاب "تاريخ الله"، يعني اعترافها ضمنا بأن هدف الكتاب هو التوصل لمعرفة كيف تطورت فكرة الله في حياة البشر، وليس تاريخ قيام الله بخلق البشر والكون وإدارته لأمور ذلك الكون.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه ليس بإمكان إنسان أن يكتب كتابا يدعي فيه أنه يعكس حقيقة ما حدث لدولة أو لشعب عبر التاريخ؛ فكل تاريخ له أكثر من وجه يعكس بعض الحقائق ويخفي بعضها الآخر، إما عن جهل أو عمد أو عدم توفر المعلومات الكافية؛ أحد تلك الوجوه هو الوجه الذي يعكس رؤية صُنّاع التاريخ لأنفسهم وتاريخ بلادهم؛ وهذا تاريخ يركز في العادة على الجوانب الايجابية، ومدح القادة وتعظيمهم، وتبرير الجرائم التي كانوا قد ارتكبوها بحق غيرهم، او سكتوا عليها. والوجه الثاني يعكس مآخذ المنتقدين على منهجية السرد التاريخي، وما يكون قد رود فيه من ادعاءات ومعلومات ووقائع ومغالطات. أما الوجه الثالث، فيعكس رؤية ضحايا كل التاريخ، خاصة الأقليات وسكان البلاد الأصليين الذين قام الاستعمار بتدمير حضاراتهم والاستيلاء على أوطانهم؛ وهذا تاريخ يركز في العادة على السلبيات والجرائم أكثر من الانجازات والانتصارات الحقيقية والوهمية.

ففي أمريكا مثلا هناك تركيز كبير من قبل بعض المؤرخين ومعظم الساسة على فكرة "الاستثناء" التي تقول أن قيام أمريكا بخصائصها ومجتمعها الأول كان حدثا استثنائيا في التاريخ، ما

جعل الايمان بمقولة الاستثناء يقترب من مقولة "شعب الله المختار" بالنسبة لليهود. أما المؤرخون اليساريون والباحثون عن الحقيقة فقد اتجهوا إلى ابراز الجوانب السلبية في تاريخ أمريكا، بمن فيها لجوء قادة أمريكا الأوائل إلى قتل الملايين من سكان البلاد الأصليين وتدمير حضاراتهم وثقافاتهم، والتوجه نحو الهيمنة على العالم. فعلى سبيل المثال، قام توماس جفرسون ثالث رئيس لأمريكا بتوجيه رسالة لوزير الحرب عام 1807 تقول إن سكان امريكا الأصليين"شعوب متخلفة، وأنه يجب القضاء عليهم أو طردهم إلى الجانب الآخر من نهر ميسيسبي ليعيشوا مع الوحوش الضارية في الغابة." ومن المعروف أن جفرسون كان من مؤسسي الولايات المتحدة، والمؤلف الرئيسي لإعلان الاستقلال، وأحد أهم مفكري عصر التنوير في أمريكا.

بدأت كارين ارمسترونج حياتها بعد الدراسة الثانوية بالالتحاق بدير للراهبات عام 1962، قضت فيه 7 سنوات من عمرها تعرضت خلالها لاعتداءات جنسية وسوء معاملة؛ الأمر الذي جعلها تفقد الجزء الأكبر من ايمانها بالدين ورجاله وتترك الدير. لكنها خلال تلك الفترة التحقت بالجامعة وحصلت على شهادة في اللغة الإنجليزية، وبعد الخروج من الدير واصلت دراستها الجامعية والتبحر في نشأة الديانات ودورها في حياة البشر. ومع أنها أقرب إلى الالحاد منها إلى الايمان، إلا انها تعتبر الدين مُكوّنا اساسيا لكل مجتمع، وأنه لا يمكن فصله عن اوجه الحياة غير الدينية. ولذلك تقول بأن فصل الدين عن السياسة في أوروبا كان تجربة غير عادية بسبب ظروف استثنائية مرت بها أوروبا، كان في مقدمتها الحروب الدينية وقيام الدولة الوطنية؛ الأمر الذي يعني أنه لا يجوز التفكير على اساس أن فصل الدين عن الدولة امرا طبيعا. وتعزو ارمسترونج التطرف في بلاد الإسلام، جزئيا، لعاملين: محاولة فرض العلمانية بقوة الاكراه على شعوب تعيش حياة تقليدية، واتجاه النظم العلمانية إلى كبت الحريات وممارسة الظلم بصورة سيئة للغاية.

مع اتفاقي مع تحليل ارمسترونج فيما يتعلق باستثناء ظروف التجربة الاوروبية، إلا انني أعتقد انها أغفلت النظر إلى عاملين آخرين، أو أنها لم تدرك أهميتهما: الاول هو ظهور المدينية – الدولة، أي المدينة التي سمحت لها الظروف بأن تدير نفسها بنفسها، وتتجاوز تعاليم الكنيسة وسلطات الدولة على السواء بسبب ضعف الكنيسة والدولة في ذلك الزمن؛ الامر الذي مكن المدينة هذه من تنظيم الأعمال الحرفية والحرفيين تبعا لقواعد تضمن الكفاءة والمهنية، وتنظيم المعاملات التجارية والمالية خلافا لتعاليم الكنيسة؛ وهذه أمور تسببت في مجموعها في افساح المجال لشيوع الحرية الاجتماعية والفكرية والدينية، والاعتراف بالأهمية القصوى للمصلحة. أما العامل الثاني فهو حدوث اكتشافات علمية وجغرافية كثيرة في العالم الجديد والقديم، واتجاه الدولة الوطنية الوليدة إلى التوسع على حساب غيرها من شعوب فقيرة وضعيفة، وارتكاب الجرائم بحقهم وحرمانهم من الحرية؛ وهذا تسبب في بلورة المشروع الاستعماري الذي شاركت فيه كافة فئات الشعب ومؤسسات الدولة المُسْتَعمرة بمن فيها المؤسسة الدينية، الأمر الذي تسبب في تنشيط التجارة، وتكوين رؤوس الاموال وتعزيز النزعة الاستغلالية للرأسمالية، والتمهيد لانطلاق الثورة الصناعية في أوروبا.

إن من الطبيعي أن يرفض المؤمنون من أتباع الديانات السماوية الثلاث نظرية ارمسترونج فيما يتعلق بوجود الله، علما بأن كتب ارمسترونج اللاحقة، وكتاب "القدس" بالذات، جعلها تكسب ود

المسلمين، ما دفع جهات مسلمة عدة لتكريمها. إذ قامت ارمسترويج في كتاب القدس بالمقارنة بين معاملة المسلمين السمحة للمسيحيين واليهود من سكان المدينة المقدسة حين قاموا بفتحها في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، ومعاملة المسيحيين الوحشية تلك لسكان المدينة من غير المسيحيين حين احتلوها بعد قرون أثناء الحروب الصليبية. من ناحية ثانية، إن من الطبيعي أن يتفق الملحدون الذين لا يؤمنون بوجود الله مع آراء ارمسترونج هذه ويؤيدونها، علما بأنها لم تنكر وجود الله. مع ذلك، إن ما يهمنا في هذه الورقة ليس الحديث عن آراء ارمسترونج ولا وجهات النظر المعارضة والمؤيدة لها، وإنما مناقشة فكرة قيام الناس باختلاق آلهة يقدسونها ويعبدونها أحيانا.

يقول غير المؤمنين بوجود الله بأنه ليس بإمكان علم او عقل او تجربة إنسانية أن تثبت وجود الله، وأن أقوال الأنبياء والكتب التي جاؤوا بها ليست إلا ادعاءات لا يمكن اثبات صحتها. لكن المؤمنين بوجود الله كانوا قد سبقوا الملحدين بالتوصل إلى طريقة مقنعة لمن يميل إلى الايمان تثبت وجود الله. وتعتمد الطريقة هذه على فرضية بسيطة جاءت على لسان أرسطو وفي كتبه التي قام العرب بترجمتها، فيما قام فلاسفة الإسلام القدامى من أمثال ابن رشد بتحليلها ونقدها وعرضها في كتب منشورة. وتقول تلك الفرضية ان علينا أن ننظر إلى الحياة ونحاول استخراج المجهول من المعلوم؛ وما دامت أن الحركة في الحياة تبدأ من الأرض وتصعد إلى السماء فمعنى ذلك أن هناك محرك ثابت لهذه الحركة، لا يتواجد داخل الكون ولا خارجه، فكل حركة لا بد وأن يقف خلفها محرك لا يكون جزءا منها. وهذا قاد أرسطو وغيره إلى القول أن هناك قوة قامت بخلق كل شيء، وأنها تتحكم في حركة الكون، وبالتالي القول بوجود الله بوصفه الحقيقة الأزلية المسؤولة عن عملية الخلق.

لكن هل كل حركة لها محرك؟ وهل ليس بإمكان شيء جامد أن يتحول إلى حركة؟ وهل المحرك موجود دوما خارج الشيء الذي يحركه؟ وهل أن الله هو المسؤول عن كل حركة تتعلق بحياة الإنسان والطبيعة كما يقول المؤمنون ايمانا مطلقا بالقضاء والقدر؟ هذه أسئلة عويصة ليس من السهل الجزم فيها، لكن الحياة تغيرت كثيرا عما كانت عليه قبل آلاف السنين، الأمر الذي جعل بإمكاننا أن نرى أشياء ونمر بتجارب لم يرها او يمر بها الاقدمون. فعلى سبيل المثال، يوجد اليوم سيارات تسير من دون سائق، تقف أمام إشارات المرور حيث يجب أن تقف، وفي محطات دون غيرها، وتخبر المسؤول عن صيانتها إذا حدث خلل في أي جزء منها؛ الامر الذي يعني أن محرك السيارة موجود داخلها وليس خارجها. قد يقول البعض إن السيارات هذه تتحرك تبعا لبرنامج في داخلها، وهذا صحيح. لكن هل قام الله بصنع السيارة وبرمجتها؟ وإذا كان الله مسؤولا حقا عن صناعتها وبرمجتها فهل أنه مسؤول عن صيانتها كذلك؟ ولماذا لم يفعل الله هذا الأمر قبل آلاف او مئات السنين؟ ولماذا جاءت عملية تطوير السيارة هذه تدريجيا استغرقت نحو قرن من الزمن حتى وصلت إلى النقطة هذه؟

من ناحية ثانية، نحن نعلم اليوم أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس بصورة منتظمة لا تتغير، ما يجعل كل مؤمن يجزم أنها حركة تنظمها قوانين الخلق التي صنعها الله وأحكم صنعها. ولما كانت البراكين لا تحدث بصورة منتظمة أو في أماكن محددة، فمعنى ذلك أنها ليست جزءا من قوانين الخلق، وإنما جزء من حركة ذاتية قد تحتاجها الأرض لاستمرار دورانها حول نفسها. وفي الواقع يمكن اعتبار حدوث الفيضانات، وسقوط الثلوج في أماكن دون غيرها، وانهيار الجبال، وحتى انهيار

العمارات في المدن والقرى جزءا من الحركة الذاتية التي لا تتعلق بقوانين الخلق. وكأن الاستنباط هذا يقول بأن الأرض التي تبدو جمسا جامدا، لها عقل ينظم حركتها حسب احتياجاتها التي تحددها بنفسها.

إذن لدينا اليوم أجسام مصنوعة من مواد كثيرة تقف جامدة لساعات أو أيام ثم تتحرك بصورة تلقائية ؛ كما وأن الأرض قد تعيش سنوات قبل أن يخرج من باطنها بركان مدمر او سيول جارفة تهدم البيوت وتقضي على مواسم الزراعة في مناطق ومواعيد غير منتظمة. ليس هناك شك في أن وراء حركة السيارة هذه محرك، لكنه بالتأكيد ليس الله، إنما العقل البشري الذي خلقه الله، وطوره العلم والفكر الإنساني فيما كان العلم والفكر يتطور. من جهة ثانية، نعلم اليوم أيضا أن العلوم الطبيعية موجودة في قوانين الخلق منذ الأزل، لكن الإنسان قام باكتشاف ربما معظمها واستنباط أشياء كثيرة منها عبر القرن الماضي، وتطويع كل ذلك لخدمة حياته وأهدافة النبيلة والشريرة على السواء. وهذا يعني أنه من الصعب أن نجد تعليلا علميا او منطقا يتيح لنا أن نعزو كل حركة في الحياة لتدخل الله.

تميل أغلبية المسلمين إلى الإعتقاد بأن الإنسان مُسيّر وليس مُخيّر، فيما تعتقد الأقلية أنه مخير وليس مسير. ويعود السبب في هذا الامر إلى عاملين: الأول، تباين مواقف الفقهاء من قضية حرية المؤمن وغيرها من قضايا تهم الفرد وتؤثر في وعيه ونوعية حياته؛ والثاني، عدم قيام القرآن الكريم بالبت في القضية هذه بشكل قاطع، إذ يحتوي القرآن على آيات تعطي الانطباع بأن الإنسان مُسيّر وأخرى تعطي انطباعاً مُغايرا. ومع أن القضية المتعلقة بحرية الإنسان وقدرته على الفعل انطلاقا من إرادته الذاتية تعود إلى بدء عمليات الافتاء في العصر الأموي، إلا أن كل ما قيل في هذا الأمر لم ينجح في التوصل إلى اجماع يوحد كلمة الفقهاء، ما جعل الخلافات في الرأي تتحول إلى صراع فئوي ومذهبي ظاهر ومستتر. ومع أن المسلمين بحاجة ماسة لحسم الموقف من القضية هذه، إلا أنه من غير المتوقع أن يتبدل الحال في المدى المنظور. لكن ما دام ان كل ما جاء في القرآن يعكس حكمة إلهية، فإن الوسيلة لتجاوز جدلية المخير والمسير تفرض علينا أن نبحث عن الحكمة من تعدد النصوص القرآنية التي تتعامل مع قضية الحرية وغيرها من قضايا مماثلة.

تسبب تعدد النصوص التي تتعامل مع قضايا المخير والمسير والخمر إلى اتجاه بعض الفقهاء مثل ابن رشد إلى القول أن الإنسان مُخيّر ضمن الْمسيّر، فيما قاد البعض الآخر إلى اختراع فكرة "النسخ" التي تقول إن بعض الآيات القرآنية قامت بنسخ أحكام آيات أخرى، واعتماد أحكام الآية التي قالوا إنها الآية الناسخة دون غيرها. ومع احترامنا لآراء كل من أدلى بدلوه في الأمر هذا، إلا إن لنا رأي آخر. ولقد جاء رأينا نتيجة للبحث عن الحكمة الإلهية في التعدد، ورفض منطق النسخ الذي يجرد بعض الآيات القرآنية من صلاحيتها وقدسيتها، إلى جانب الاستهانة بعقل الإنسان وإنسانيته؛ فكل من يطلع على الآيات الناسخة والمنسوخة يكتشف أن فقهاء النسخ اعتمدوا أكثر نصوص القرآن تشددا، وأقلها رحمة بالناس، وكأن هدف الله هو حرمان المؤمنين من الحرية. إن التعرف على الحكمة الإلهية من وراء تعدد بعض الأحكام وعدم تطابقها أسهل من التعرف على عين الشمس في وسط السماء؛ كما أن فهم أبعاد الحكمة هذه على حياة الإنسان والمجتمع أسهل من صنع فنجوان قهوة، فالله سبحانه وتعالي أراد لنا أن نعيش حياة سوية بعيدة عن التعقيد، نستخدم عقولنا ونتمتع بالحرية؛ لهذا نعتقد أن تعدد الأحكام وعدم تطابقها استهدف منح المؤمن خيارات حيال بعض القضايا دون غيرها.

وفي الواقع، لو كان كل شيء مقدر سلفا، كما يقول فقهاء المسير لا المخير، فمعنى ذلك أنه لا يمكن لإله عادل أن يحاكم مؤمنا من عباده، لأن المؤمن، والحالة هذه، لا يتحمل مسؤولية أفعاله في الحياة الدنيا، وإنما يتحملها الخالق الذي كتبها عليه يوم مولده. لكن الله الحكيم الرحيم أعطى الإنسان عقلا جبارا ومنحه خيارات كي يستخدم عقله ويتحمل مسؤولية أفعاله تجاه نفسه وغيره من البشر. وهذا يعني أن العدل الإلهي يفرض أن يُحاكمَ المُؤمنُ بناء على مدى استخدامه لإمكاناته العقلية وطبيعة أفعاله الدنيوية من خير وشر.

لكن أجدادنا من فقهاء الماضي لم يكن لديهم الوعي الكافي، ولا العلم الكافي، ولا الحرية كي يفكروا ويتعرفوا على الحكمة الإلهية من وراء تعدد الأحكام بالنسبة لبعض القضايا. كما وأن سعي الفقهاء للسيطرة على المؤمنين، وتحاشي غضب الحكام المستبدين دفعهم إلى اهمال العقل ودوره في حياة الفرد والمجتمع. لقد قام معظم الفقهاء بتوظيف عقولهم لخدمة الحكام والتجاوب مع أهوائهم، ولم يقوموا باستخدام عقولهم لخدمة المسلمين؛ حتى القلة من الفقهاء الذين قاموا بتوظيف عقولهم لخدمة الإسلام والمسلمين لم يتمتعوا بالحرية الفكرية للتعبير عن أرائهم. من ناحية ثانية، إن كل ما توصل إليه فقهاء الماضي من أحكام لم تأتي بوحي من الله، وإنما باستخدام عقولهم، ما يعني أن من حق كل إنسان جاء بعدهم أن يستخدم عقله كما استخدموا عقولهم وقراءة القرآن، والتوصل إلى نتائج قد تتفق مع النتائج التي توصلوا إليها، وقد تخالفها كثيرا أو قليلا.

إن النظر بعلمية وأمانة مع النفس والدين يستوجب إعادة قراءة التراث الفقهي برمته، وتنقيته من الشوائب والمغالطات التي صدرت في عصور قديمة لم تعرف علما أو حرية دينية أو اجتماعية أو فكرية أو سياسية. وهذا يعني تغيير الأسس التي ينطلق منها العقل لقراءة القرآن، أي أننا بحاجة لنقلة نوعية في التفكير، أو ما يعني (Paradigm Shift). فتعدد الأحكام بالنسبة لبعض القضايا مثل تعاطي الخمر، تعني أن الله سبحانه وتعالى أعطى المؤمنين خيارات، ولم ينسخ آية بأخرى، والخيارات تفرض على الإنسان أن يفكر ويتحمل مسؤولية قراراته وأفعاله، فيما يكون استخدام العقل وتحمل المسؤولية هو الأساس للجزاء والعقاب يوم الآخرة. ولنأخذ مثالا قضتي الخمر وصيام شهر رمضان لايضاح قضية تعدد الأحكام وكيف أنها تعكس خيارات إلهية جاءت رحمة بالناس.

إشكالية الخمر

هناك 6 آيات تتعامل مع إشكالية الخمر، خمسة تتعامل مع الإشكالية هذه بصورة مباشرة، والسادسة تتعامل معها بصورة غير مباشرة. لكن قبل ذكر تلك الآيات وإيضاح ما جاءت به من أحكام، لا بد من التذكير بأن القاعدة الأساسية في حكم الحلال والحرام تقول بإن كل ما لم يُحرم بنص فهو حلال، وحيث أن الله لم يذكر الخمر ضمن قائمة المحرمات التي جاءت في القرآن الكريم، فهو حلال من حيث المبدأ. الآيات التي تتعامل مع إشكالية الخمر بصورة مباشرة هي 43 من سورة النساء، 219 من سورة البقرة، 15 من سورة محمد، 90 و 91 من سورة المائدة. أما الآية التي تتعامل مع تلك الإشكالية بصورة غير مباشرة، فهي الآية 5 من سورة المائدة. تقول تلك الآيات الكريمة على التوالي:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا

يسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

توحي الآية الأولى أن الخمر مسموح به، لكن من غير المسموح لمن يتعاطى الخمر أن يقترب من الصلاة وهو في حالة سكر. أما الآية الثانية فتقول صراحة إن في الخمر إثم كبير ومنافع للناس، ويختتم الله تلك الآية بقوله "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ". وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى يدعو الناس إلى التفكر في أمور حياتهم، واتخاذ قراراتهم بأنفسهم، بناء على ما يروق لهم ويرونه مناسباً لأوضاعهم المالية والصحية وغير ذلك من أمور. وفي الواقع، لو لم يكن في الحياة خيارات وأن المؤمن مسير لا مخير، لما دعى الله المؤمنين إلى التفكر. وفي هذا تأكيد على أن ما قد يبدو للقارئ العادي بأنه عدم توافق في الأحكام الواردة في القرآن هو في حقيقة الأمر خيارات يوفرها الله للإنسان كي يتحمل مسئولية تصرفاته بنفسه. إذ فيما يقول سبحانه وتعالى إن إثم الخمر أكثر من فوائده، يحث الإنسان على التفكير في أمر تعاطي الخمر ومقارنة فوائده مع الإثم المتوقع منه، وذلك قبل أن يتخذ المؤمن قراره؛ فهناك من الناس من يحتاج الخمر لما فيه من فوائد، وهناك من لا يحتاج فوائد الخمر وبالتالي من الأفضل له أن يتجنب إثمه. أما فيما يتعلق بفوائد الخمر فقد أثبت العلم صحة ما جاء في القرآن، إذ يقوم الخمر بتوسعة شرايين الإنسان الذي يتعاطاه بشكل منتظم، شريطة أن لا يزيد ذلك عن كأسين من النبيذ في اليوم؛ كما يقوم الخمر بجعل دم الإنسان أكثر ميوعة وأقل تخثرا؛ وهذا يضعف احتمالات تعرض الإنسان إلى سكتة قلبية أو جلطة دماغية تُقعده عن العمل والتفكير أو تقضي على حياته.

أما الآية الثالثة فتقول إن من ميزات الجنة التي يعد الله بها المؤمنين أن فيها أنهار من الخمر، وأن في الخمر لذة للشاربين. وما دام أن في الخمر لذة للشاربين ومنافع للناس، كما جاء في هذه الآية والآية السابقة، وانه من مميزات الجنة، فإن من غير المعقول أن يُحرّم الله الخمر على عباده. لكن لأن في الخمر أضراراً كثيرة وأنه رجس من عمل الشيطان، فإن الله يحذر المؤمنين من شربه، فيما يبين لهم الأمور على حقيقتها كي يتخذوا الموقف الذي يختارونه بمحض إرادتهم. إنني أدرك أن الفقهاء القائلين بتحريم الخمر قالوا بأن خمر الآخرة غير خمر الدنيا. لكن هذا تأويل لا يستند إلى نص قرآني أو منطق، ما يجعله مجرد رأي يخالف ما جاء في النصوص القرآنية المختلفة. وفي الواقع، لو كان هذا الرأي هو ما عناه الله لكان علينا أيضاً أن نجد تأويلاً لما جاء بشأن الماء غير الآسن والعسل المصفى واللبن الذي "لم يَتَغيَّرَ طَعْمُه"، فهذه كلها تصف أشياء عرفها الإنسان في الدنيا وتذوقها.

لقد كان بإمكان الله، لو أراد، أن يضيف حرفاً واحداً لكلمة الخمر كي يفتح المجال للتأويل، وهو حرف "الكاف"، لتصبح كلمة خمر "كالخمر"؛ أو أن يستخدم كلمة مختلفة لتصف نهر الخمر في الجنة، لأن الله على كل شيء قدير. لكن اختيار كلمة الخمر دون سواها، يجعل الكلمة تعني الخمر الذي عرفه الناس في الحياة الدنيا، وتذوقوا طعمه، وعرفوا أن فيه لذة ومتعة ومضار. وفي الواقع، من الصعب إغراء الناس وتشجيعهم على السعي للحصول على شيء لا يعرفون عنه شئياً، وقد لا يروق لهم، ما يجعل الخمر الذي جاء ذكره في القرآن هو خمر الدينا، وليس شيئا آخر يشبهه. وإذا كان خمر الجنة غير خمر الدنيا، كما يدعي الفقهاء القائلين بتحريم الخمر، فهل لبن الجنة الذي لم يتغير طعمه والعسل المصفى والماء غير الآسن غير لبن وعسل وماء الدنيا؟

تقول الآية الرابعة التي تتعامل مع الخمر بشكل مباشر، وهي الآية التي يستند إليها الفقهاء القائلون بتحريم الخمر، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة محمد 90). إننا نعلم جميعا أن معنى كلمة "اجتنبوه" في اللغة هو ابتعدوا عنه، وبالتالي لا تعني أنه حُرم عليكم. ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن الآية 91 من سورة محمد، أي الآية التالية مباشرة، جاءت لتكمل ما تنص عليه الآية 90، إذ تقول تلك الآية: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ"، ما يعني أن الهدف مما جاء في الآيتين هو نهي المسلمين عن شرب الخمر وليس تحريمه. وفي حالة ضم الآيتين معا، يصبح النص والقصد منه واضحاً تماماً "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُون". وهذا يعني أن كلمة "فاجتنبوه" جاءت لِنَهْيِ المؤمنين عن تعاطي الخمر وليس لتحريمه. لكن فقهاء التحريم يتجنبون ذكر الآية الثانية لأنها توضح بشكل قاطع مغزى كلمة فاجتنبوه وهدفها. ومع أن الاستناد إلى نص الآية الأولى لا يفي بغرض القائلين بتحريم الخمر، إلا أن إهمال الآية التالية يوضح أن فقهاء التحريم لجئوا إلى انتقاء ما قد يساعدهم على تمرير فتواهم، وأهملوا ما يكشف قصد الآية الحقيقي.

لقد حرم الله على عباده العديد من الأمور جاء تعدادها في أكثر من آية قرآنية، لكن الله لم يذكر الخمر بين تلك الأمور. وما دامت الأشياء المحرمة والممنوعة في كل القوانين قليلة مقارنة بالأشياء المحللة والمسموح بها، فإن كل ما هو غير محرم حلال، وكل ما هو ليس ممنوع مُباح. ويؤكد النص الذي جاء في الآية 5 من سورة المائدة على أن الخمر حلال، وإن كان ذلك بصورة غير مباشرة. تقول تلك الآية "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ". ولما كان الخمر محلل عند النصارى بوصفهم من أهل الكتاب، وأنهم ورثوا تحليل الخمر عن التوراة في كتاب اليهود، فلا بد وأن يكون محلل للمسلمين الذين هم من أهل الكتاب أيضاً، فالله يُحل للمسلمين ما أحل للنصارى واليهود، ويُحل لليهود والنصارى ما أحل للمسلمين، باستثناء ما جاء بشأنه نص مختلف كما جاء بشأن لحم الخنزير الذي حرمه الله على المسلمين واليهود.

وهنا أود أن أؤكد للمرة الثالثة على ايماني القاطع بأن عدم توافق الأحكام التي جاءت في بعض الآيات لم يأتِ نتيجة لعملية نسخ قام بها الله، وإنما هو جزء من الحكمة الإلهية التي تتوخى رحمة الناس، واعطاء الإنسان فرصة لتقرير مصيره بنفسه من خلال استخدام عقله واختيار ما يراه مناسباً من أمور يكون الله قد وفرها له على شكل بدائل غير متوافقة لكل منها منافعه ومحاذيره. وفيما يَحُل هذا التفسير إشكالية النسخ التي لا تستند إلى مرجع قرآني ويُلغيها تماماً، يُبين مدى عظمة الخالق وحرصه على رحمة الناس وتمتعهم بالحياة التي وهبهم إياها، وعدم محاسبتهم إلا على ما فعلت أياديهم وكان بإمكانهم أن يفعلوه، سواء كان خيراً أو شراً.

إشكالية الصوم

لدينا في القرآن الكريم ثلاث آيات تتعامل مع إشكالية صيام شهر رمضان جاءت جميعها في سورة البقرة. تقول الآية الأولى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة 183)، وتقول الثانية: "أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون (البقرة 184). وتقول الثالثة: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة 185). وفيما ترسي الآية الأولى مبدأ الصيام بوصفه فرض على المؤمنين، تنظم الآية الثانية عملية الصيام وتحدد الاستثناءات التي تبيح للمؤمن عدم الصيام. أما الآية الثالثة، فتعيد تأكيد فرض الصيام وتحديد الاستثناءات للمسافر والمريض كما جاء في الآية الثانية. وهذا يعني أن الله ترك للناس الخيار فيما يفعلون؛ لكن غالبية الفقهاء ترفض هذا المنطق، فالقرآن بالنسبة لهم نصوص وأحكام قاطعة، وأن لهم وحدهم حق تأويلها. ولهذا يفسر فقهاء التحريم عبارة "وعلى الذين يطقونه" بأنها تعني "وعلى الذين **لا** يطيقونه"، بإضافة "لا". لكن هل يجوز تأويل نص واضح بإضافة كلمة تقلب المعنى رأسا على عقب وتنفي القصد؟ أو أن الإضافة تأتي لتذكر الله بما كان عليه ان يقوله؟

من ناحية ثانية، إذا تمعنا في الآيات هذه فسوف نكتشف أن حُكم الآية الثانية القائل بجواز عدم الصيام مقابل "طعام مسكين" لا يتعارض مع حكم الآية الأولى أو الثالثة، وإنما يؤكد أيضا على الاستثناءات التي نصت عليها. وهذا يعني أنه ليس هناك تناقض بين النصين من حيث المبدأ ما يستوجب التأويل. إذ فيما ترسي الآية الاولى التي تقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"، المبدأ العام بالنسبة للصيام، تؤكد الآية الثالثة هذا المعنى قائلة: "فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ". أما الآية الثانية فتوضح الاستثناء حيث تقول: "وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له". إذ حين يقول الله "فمن تطوع خيراً فهو خير له" يعني أن تقديم فدية الصوم مقابل عدم الصيام هو عمل خير بحد ذاته، وأنه يعود على فاعله بالخير كذلك. ومما يؤكد الرأي هذا أن كتاب "الصيام ورمضان: دراسة أصولية تاريخية" المنشور على موقع أهل القرآن يفسر الآية هذه بأنها تعني من "يستطيع الصوم ويقدر عليه ولكن يعانى من مشقته فله أن يفطر وأن يدفع فدية طعام مسكين"، علما بأن الآية المعنية لا تنص على المعاناة، فالآية لا تضع شرطا على عدم الصيام سوى "طعام مسكين".

إن مقارنة حُكم النص الوارد في الآية الأولى مع حُكم النص الوارد في الآية الثانية تكشف أن الحكم الوارد في الآية الثانية فيه منفعة كبيرة للفقراء والمجتمع، بيما تقتصر المنفعة بناء على حكم النصوص الأخرى على المؤمن الذي يصوم الشهر. إن التمعن في الآيات هذه يكشف أن وجود نصين غير متوافقين هو نعمة من الله سبحانه وتعالي تستهدف منح المسلمين خيارات، وحثهم على عمل الخير الذي يعود على المجتمع بالخير، ويعود عليهم بالنفع في الدنيا الآخرة على السواء. إذ فيما تقوم الآية هذه بتذكير المؤمنين بالمساكين وتشجيعهم على استبدال الصوم باطعام المساكين، تؤكد للمؤمن أن اطعام المساكين عمل خير يعود عليه بالخير. ولما كان التعاطف مع المساكين والفقراء يخدم مصلحة المجتمع، فإن فدية الصوم تعتبر من أعظم فوائد شهر رمضان الكريم.

ومع أن أداء العبادات جزء مهم من الدين، إلا أن فوائدها تقع ضمن المنفعة الشخصية، إذ لا تعود بالمنفعة سوى على من يقوم بها من المؤمنين في الآخرة. أما إطعام المساكين فهو جزء من عمل الصالحات الذي يعود بالمنفعة على المجتمع ككل، ويؤهل صاحبها للفوز بالجنة؛ وهذا ما تؤكده الآيات التالية والعديد غيرها. "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ" (البروج 85) "وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (الأعراف 42) "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ" (لقمان 8) "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الجاثة 30) وهذه آيات لا تربط دخول الجنة بالعبادات، وإنما تربطه بعمل الصالحات، وذلك بعد الايمان الذي يشمل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ويبدو واضحا من دراسة القرآن بأن القيام بكافة العبادات لا يضمن لمؤمن دخول الجنة إلا إذا اقترنت العبادات بعمل الصالحات، ما يجعل عمل الصالحات يتجاوز من حيث الأهمية الدينية والدنيوية كافة العبادات.

ولما كان من غير الممكن أن تقوم دولة بواجباتها كاملة تجاه الفقراء في بلادها، فإن خيار "طعام مسكين" لا بد وأن تكون له الأولوية لما فيه من منفعة عامة، خاصة في البلاد التي يتسع

نطاق الفقر فيها، بمن فيها معظم البلاد العربية. وهنا نود أن نعيد التأكيد على أنه لا يوجد تناقض بين الحكم الوارد في الآيتين الأولي والثالثة والحكم الوارد في الآية الثانية، بل تأتي تلك الأحكام على شكل خيارين يوفرهما الله للمؤمنين؛ الأمر الذي يفرض على المؤمن أن يختار ما يراه مناسباً لصحته وظروف حياته وأوضاعه المالية، وحاجة المجتمع الذي ينتمي إليه. لكن منح المؤمنين حرية الاختيار بين البدائل المتاحة يحرم السلطان وفقهاء السلطان من الهيمنة على المؤمنين والتحكم في أمور حياتهم. وهذا يجعل من الضروري إلغاء كافة الخيارات المتاحة في الدين، والتمسك بكل نص وتأويل فقهي يركز على واجب إطاعة أوامر السلطان وفقهاء السلطان، حتى وإن كان في الغاء الخيارات ظلم لبعض المؤمنين والمجتمع والمساكين.

إن القول بأن الإنسان مسير وليس مخير يعني ببساطة أن العقل الإنساني قد تمت برمجته بطريقة لم تترك له مجالا ليشارك في عمليات التفكير أو التحليل أو تسيير أمور حياته وحياة مجتمعه؛ ما يجعل الدور الذي يقوم به عقل المؤمن ينحصر في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من مصدر مجهول لا يعرفه وليس من حقه أن يتواصل معه، أو يسأله عن شيء يصعب عليه فهمه. وهذا يشبه دور الكمبيوتر البسيط الذي ظهر في السيارات التي وصلت الأسواق في تسعينيات القرن الماضي؛ فهذه أجهزة مبرمجة لتزويد السائق بمعلومات بسيطة لكنها مفيدة مثل حجم المتوفر لدى السيارة من الوقود، ودرجة حرارة الجو في الخارج، ومواعيد خدمة السيارة، وأشياء مماثلة. لكن العلم يوفر اليوم عقولا آليه مبرمجة تتعلم من تجاربها وتقوم بتعديل ردود أفعالها بناء على ذلك؛ الأمر الذي يجعلها تتفوق كثيرا على عقل المؤمن المبرمج من قبل الفقهاء، إذ ليس من حقه أن يفكر أو يعدل شيئا.

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية، لا بد وأن نسأل كل فقيه يفتي في أمور الحياة والدين كيف يمكن له أن يستنبط أحكاما يعتبرها ملزمة، ويكفر أحيانا من لا يلتزم بها. هناك احتمالين للاجابة عن السؤال هذا: الأول أن الفقيه يستخدم عقله ومعارفه والمنطق الذي يحكم عقله للإدلاء برأيه، سواء كان الرأي نابعا من أمانة مع النفس أو خدمة لمصلحة ذاتية او سلطوية. لكن استخدام العقل يجعل كل فتوى رأيا قابلا للصحة والخطأ، ما يجعل قيام فقيه بتكفير من يختلف معه في الرأي جريمة. من ناحية أخرى، هل يجوز لفقيه أن يستخدم عقله ويُحرّم على غيره من البشر استخدام عقولهم ويقول إنهم مسيرون لا مخيرون؟ أما الاحتمال الثاني فيقوم على أساس الايمان بالقضاء والقدر، والمسير لا المخير؛ الأمر الذي يجعل ما يقوله الفقيه يعكس ما لدى عقله المبرمج من قبل الله سبحانه وتعالي، ما يعني أن فتوى الفقيه التي يُحل ويُحرم ويُكفر على أساسها هي جزء من الإرادة الإليه المقررة سلفا، وهذا يعطي الفقيه مكانة الله في الأرض لأنه ينطق باسمه ونيابة عنه. ودعنا نسأل كل فقيه عما إذا كان الله أيضا قد برمج له مواعيد النوم مع نسائه وكيف ينام معهن، وعما إذا كان الله يراقب كل ما يحدث بينه وبين نسائه في ظلمات الليل؟

والآن سأحاول القيام بمحاججة تتعلق بقدرة العقل الإنساني المتحرر من قيود القضاء والقدر، وقدرة العقل الفقهي الذي يؤمن بالقضاء والقدر؛ أي بين العقل الذي يؤمن بإن الإنسان مخير وليس مسير، والعقل الذي يؤمن بأن الإنسان مسير وليس مخير. إن من الممكن أن تقاس المقارنة بمقاييس مختلفة، لكن حقائق الواقع الذي نعيشه اليوم تشير بوضوح بالغ إلى انه لم يكن باستطاعة شعب

إسلامي أن يحقق ولو جزءا صغيرا مما حققته شعوب عقولها متحررة من قيود القضاء والقدر في العلوم والفكر والثقافة والفن والاقتصاد والتكنولوجيا والطب والجينات والفضاء وغيرها من علوم طبيعية وإنسانية؛ وحتى بعض الشعوب المسلمة التي خطت خطوات متواضعة ولكن جيدة على طريق العلم كانت قد استقت علومها من علوم شعوب تحررت من مقولات القضاء والقدر وغيرها من معتقدات جامدة. فالإنسان حين يؤمن بأن ما يحدث له في الحاضر والمستقبل هو قضاء وقدر يجد نفسه، ومن دون وعي، يميل إلى التواكل والكسل، والابتعاد عن الفكر والتفكير والخيال، إذ لا خيال يطغى على عقل المؤمن سوى ملذات الجنة وحورياتها. لكن سيرة الإنسان عبر التاريخ تشير إلى أنه لم يكن بإمكانه أن يصنع شيئا أو يحل إشكالا من دون أن يتخيل الشيء أو مكونات الحل وتبعاته. لكن الايمان سهل ومريح يعفي العقل من عناء التفكير، فيما يتسبب التفكير والخيال العلمي في ارهاق العقل والجسد أحيانا. لذلك يتصف المسلم عامة والمؤمن بالقضاء والقدر خاصة، بتواضع انتاجيته وضعف خياله، وتردده في اتخاذ خطوات تحمل بين طياتها بعض المخاطر.

من ناحية ثانية، نلاحظ أن عقل من يؤمن بالقضاء والقدر ضعيف القدرة على الخلق والابتكار والخيال؛ وهذا لا يعود إلى كونه عقلا معطوبا بطبيعته، وإنما لكونه عقلا لم يتدرب على التفكير وممارسة العمل التجريبي، وتخيل المستقبل، علما بأن هذا العقل قد يكون عبقريا. إن انعدام الحرية، وبطش أنظمة الحكم الفردية، وتخلف نظم التعليم، وجمود الفكر الايديولوجي القائم على حتميات دينية وتاريخية هو أقوى سلاح يلجم العقل ويحرمه من التجول في عالم الخيال الواسع، ويقتل روح الخلق والابتكار والتساؤل والمغامرة لدي الإنسان.

العقل هو أعظم هدية منحها الله للإنسان المؤمن وغير المؤمن، وأوكل إليه مهام التفكير في أمور الدنيا والكون، والتعرف على قوانين الخلق، وتوظيفها لتطوير مختلف العلوم والفنون والنظم الاجتماعية والتكنولوجيا الصناعية والخدمية، وإنتاج ما يحتاجه المجتمع من بضائع وخدمات تتطور مع تطور الحضارات، وإدارة شؤون حياته وحياة البشرية جمعاء. وهذا يعني أنه لا فرق بين العقل الايماني المقيد بقيود الفقه القائم على القضاء والقدر، والعقل المتحرر من تلك القيود من حيث القدرة على التفكير والخلق والابتكار والخيال؛ الفرق بين العقلين هو في مقدار ما يُحاصر العقل الأول من قيود عقائدية وتقاليد اجتماعية وكبت سياسي وفكر ديني متحجر يدعي القدسية، وما يتمتع به العقل الثاني من حرية اجتماعية وسياسية وفكرية ودينية وخيال علمي وفني واسع.

قد يقول البعض أنه كان في الماضي حضارة إسلامية عظيمة استمرت نحو ثلاثة قرون، وأنها أنتجت كثيرا من العلماء والرواد في ميادين الفكر والفلسفة والشعر والطب والكيمياء والفيزياء وعلوم البحار وغيرها. هذا صحيح لا خلاف حوله؛ لكن الصحيح أيضا أن الحضارة الإسلامية تراجعت وتدهورت بسبب شيوع الفساد السياسي، والاستغلال الاقتصادي، والكبت الفكري والديني، وغياب الحريات، وانفراد الحكام في السلطة، وليس بسبب تحديات خارجية اجبرت المسلمين على التراجع وأدت إلى اضمحلال حضارتهم. وتعود أسباب تراجع العرب وتخلفهم إلى أربعة عوامل رئيسية: أولاً، اتجاه الحكام وفقهاء السلاطين إلى محاربة العلم والخيال الفني والأدبي، وتكفير معظم المفكرين وتضييق الخناق عليهم وقتل وحرق العديد منهم؛ وثانيا، اتجاه القوى السياسية والدينية المهيمنة

على المجتمع إلى ممارسة الكبت الاجتماعي والفكري وإغلاق أبواب الاجتهاد في الدين؛ ثالثاً، انعدام قدرة الثقافة العربية والعقل الفردي السلطوي والفقهي على السواء على تطوير العمل الفردي إلى عمل جماعي مؤسسي؛ ورابعا، استمرار هيمنة الثقافة القبلية على حياة المجتمع.

وفي الواقع، لا يزال الفكر المؤسسي والعمل الجماعي غائبا غيابا شبه كامل عن حياة المجتمع العربي، علما بأنه ليس بالإمكان قيام عمل جماعي تطوعي بالدفاع عن قضايا إنسانية في غياب الحرية. نعم، هناك عمل جماعي غير تطوعي تفرضه السلطة على بعض أتباعها لمصلحة تتعلق بها وحدها، وهناك تعاون بين أتباع كل عقيدة يقوم غالباً على كراهية الغير والتفرقة ضدهم؛ فكل فكر عقائدي ديني وغير ديني يرفض الفكر المنافس له ويعادي أتباعه؛ الأمر الذي يجعل الفكر العقائدي يتعارض مع العمل الجماعي الذي يقوم على المواطنة ومساواة كافة أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات. فكل ما يقوم به الفكر العقائدي من عمل جماعي يستهدف إما خدمة أتباعه دون غيرهم من الناس، أو التآمر على منافسيه، أو الاثنين معا.

دعنا نفترض، كما يؤمن كل مسلم، أن الله هو الخالق، وأنه لا خالق ولا إله غيره، وأن الله هو "عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور"، وأنه على كل شيء قدير يقول للشيء كن فيكون. إذا كانت هذه بعض صفات الله العظيم، وأنه هو المهيمن الجبار، فلماذا يسكت على أعمال القتل والظلم والقهر والبؤس في عالمنا، ولماذا جعل الله المسلمين من أكثر أمم الأرض تخلفا ومذلة، وجعل قلوبهم قاسية على بعضهم البعض أكثر بكثير من قسوتها على الظالمين من غير المسلمين؟ وما دام أن الله حليم وعادل ورؤوف ورحيم بالمؤمنين، فلماذا يسمح بقتل وتشريد ملايين الأطفال، واغتصاب آلاف النساء في العراق وسوريا واليمن والصومال ونيجيريا وغيرها من بلاد المسلمين؟ هل هذا يعكس رحمة ورأفة وعدلا إلهيا؟ أم أنه يعكس ظُلما قد لا يساويه ظلم آخر؟ وإذا كان الله يقول للشيء كن فيكون، فلماذا لا يعم السلم والمحبة والتآلف كافة أنحاء الكرة الأرضية؟ لو كان الله حاكما من البشر يدير هذا الكون في هذا الوقت بالذات لقامت ضده مظاهرات صاخبة في كل أرجاء المعمورة تتهمه بارتكاب أبشع الجرائم، وتطالب بعزله والانتقام منه.

هناك احمالات ثلاثة يمكن لها أن تفسر لنا هذه الإشكالية: الأول هو أن الله الذي تعرفنا عليه في القرآن الكريم غير موجود، وأن ما جاء به الأنبياء من كتب وأحاديث هي أمور مختلقة لا أساس لها من الصحة؛ لكن هذا الاحتمال يتناقض مع انتظام حركة الكون التي تحتاج إلى عبقرية مطلقة تقف خارج هذا الكون، أي تحتاج إلى إله خالق. الاحتمال الثاني هو أن الله، وخلافا لما جاء في القرآن وغيره من كتب مقدسة، ليس رحيما ولا رؤوفا ولا عادلا، وإنما خلق البشر ليتلهى بهم، وأنه يستعذب رؤية الأطفال يموتون تحت الأقدام، فيما تقوم القنابل الحارقة والأمراض بتشويه أوجههم البريئة، ويباعون في الأسواق سبايا؛ وهذا يتنافي تماما مع مشاعر كل أب وأم، فكافة البشر هم جزء مما خلق الله، ما يجعلهم بمثابة أولاده. أما الاحتمال الثالث والأخير، وهو الاحتمال الذي نعتقد بأنه الاحتمال الوحيد والسليم الذي يعترف بكل صفات الله العظيمة، بمن فيها الرحمة والرأفة والعدل، فهو أن الله وهب كل إنسان عقلا كي يستخدمه لإثراء حياته، وتحمل مسؤولية إدارة شؤونها بالكيفية التي تضمن العدل والاستقرار في الأرض، وتكفل للبشرية حياة سعيدة مثمرة.

وهذا يعني أن كل ما يحدث في الأرض من كوارث مناخية، وحروب وقتل وسبي وظلم، وفساد سياسي واقتصادي، وكبت لحرية الفكر والرأي، وقيام الأقواء باستغلال الفقراء والبؤساء هي أمور تقع مسؤوليتها بالكامل على عاتق الإنسان وحده. وفي الواقع، نعتقد بإن الله خلق للإنسان عقلا لإدارة أمور حياته وعلاقاته مع غيره من البشر كي يعدل سبحانه وتعالي في محاسبة الناس يوم القيامة، تبعا لمدى قيام كل إنسان باستخدام عقله، ومجالات استخدامه لعقله، وحسن إدارة امور حياته، وتنظيم سلوكياته، والنتائج المترتبة على تلك الامور. وكما يشير القرآن الكريم، تمثل أعمال الإنسان وأفعاله وتبعاتها على حياته وحياة غيره من البشر لائحة الإتهام ولائحة الدفاع في الوقت نفسه، وعلى أساسها يُدخِلُ الله بعض البشر في جنات النعيم، ويُدخل بعضهم الآخر في الجحيم.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com